في الأدب الانكليزي

ماثيـــو أرنولد

Mathew Arnold

بقلم الأستاذ خيري حماد

٢

وقد كتب عنه بل قائلا : « لقد كان أرنولد ناقداً أميناً ، نعم لقد أساء فهمه الكثيرون ولكن ما قيل عنه يجب ألا يعد لا في الخير ولا في النفير فلم يخطىء الحقيقة بل أصاب مقاتلها في بعض الأحيان وأخطأها في البعض الآخر . ويجدر أن نجد في أدبنا ناقداً بضاعيه في الدعابة وحسن النكتة . وإن محاضراته عن ترجمة هو ميروس لتؤلف كتاباً تلذ قراءته ، وتفيد مطالعته ، ويستحسن طبعه ؛ فهو كتاب قيم يندر أن نجد له مثيلا في دقة عنويانه وحلاوة دعابته ؛ فهو يجعل قراءة الأدب لذيذة ؛ ومطالعة سير الحب سارة للرجال الذين بلغوا من العمر عتيا يتذكرون أيام طفولتهم ومغامرات حداثتهم[1] » .

لن تتيح لنا الظروف أن نتناول كل ما كتبه ارنولد في النقد وأصوله وفنه ، ويكفي هنا أن نسرد مثلين من أمثلة نقده لندل على الطريقة التي كان يتبعها في نقد الأدب والأدباء أما المثل الأول فهو يتناول آراء أرنولد في الشاعر الإنكليزي المعروف شلي ، والثاني تنسون .

لم يكتب أرنولد طيلة حياته نقداً تاماً للشاعر شلي ولكنه في مواضع كثيرة من مؤلفاته يطلعنا على رأيه فيه ؛ فهو يصفه كثيراً بقوله : « هو ملاك جميل ولكنه عديم التأثير إذ يحلق في الفضاء مرفرفاً بأجنحته دون أن يحدث هنالك كبير أثر[2] » وفي بعض النواحي الشعرية يجهد شلي نفسه للحصول على ما يستطيعه الغير بسهولة ودون أي تعب أو نصب . ولكن الأغاني التي اشتهر أمره فيها لم تكن أحسن ما كتبه الشاعر بل إن معظم أشعاره ستحف من التوافه والمبتذل من الشعر .

وكان أرنولد يعتقد اعتقاداً جازماً في أن شلي لم يصل إلى الدرجة السحرية الفائقة التي كانت تنتظر منه ، وأن شعره يخلو من المادة الصحيحة السليمة . ولكن دعنا نستعرض هذين الانتقادين لنرى مبلغ صحتهما وسوائهما . أما من حيث مادة شلي وأسلوبه فتكثر فيه الحسنات كما تكثر السيئات . وأما من حيث خياله ومقدرته السحرية فقد أخطأ أرنولد في نقده تمام الخطأ ، فمن يقرأ لشلي قصيدته « إلى الطائر To Skylark يجد فيها مقدرة خيالية عظيمة قل أن توجد في غيره من الشعراء . فقد صور فيها صوراً رائعة لا شك في تأثيرها على نفسية القراء .

ولنتناول الآن نقده لتنسون ، فقد كان دائم الكراهية لهذا الشاعر العظيم ، وعندما ظهر كتاب « خرافات الملك » Idylls of the King لتنسون كتب أرنولد عنه قائلا : « إن من الأغلاط الكثيرة التي أجدها في تنسون في كتابه هذا هو افتقاره لسحر القرون الوسطى وقوة خيالهم ، ومع مقدرته الفنية الفائقة فقد كانت تنقصه المقدرة العقلية[1] » .

وفي هذا النقد تحامل ظاهر لا يمكن أن نتجاوزه ، فقد كان أرنولد دائم التفضيل لبيرون على تنسون ، وقد وصفه الكثيرون من الأدباء بتحامله على جميع معاصريه مدفوعاً بروح المنافسة ، وهذا خطأ بين لا يمكننا الإغضاء عنه ، فقد كان من حي سنت بوف مع أنه من معاصريه ومنافسيه . ناهيك عن تحامله الشديد على شلي وكيتس الذي امتد طيلة حياته .

من المثلين السابقين اللذين ذكرتهما نرى أرنولد مر النقد قوي الشكيمة ، ولكن هذه الصفة لم تكن لتنطبق عليه دائماً فكان من حي وردزورث وبيرون ومن أنصارهما . وقد وصف وردزورث بقوله إن الطبيعة قد أمسكت يقلمه فسجلت روائع رائدها قوة الطبيعة الخارقة على تفهم الحياة ومناحيها المختلفة . وقد كتب إلى أحد أصدقائه « إني لا أومن بقوة تنسون ومقدرته في أية ناحية من نواحي الأدب . فهو لا يضاهي جوته في تفكيره العصري ، ولا وردزورث في خياله وقوة ابتكاره ، ولا بيرون في عاطفته ورقته . ولكنه شاعر يعتبره الناس في عصرنا هذا ،

(١) Selected Essays. Birrél P. 216

(٢) Amiscelleny Brodley P. 145

(١) Essay m Criticism : Grnoed

ولكني لا أحل له في نفسي أي اعتبار أو تقدير لفنه أو لشعره[1] » .

وعندما أتناول البحث في كتابه : « مقالات في النقد » Essays on Criticism يرى القارىء هنالك بحثاً أكثر إسهاباً عن شهرة أرنولد في عالم النقد . فهو خير كتاب يقرأه الطالب لتعلم فن النقد وأصوله . ولكن نقده لم يكن في الحقيقة مبنياً على الأساس العلمي الصحيح فتحامله شديد على كثير من الأدباء والشعراء في عصره . وهذا التحامل قاده للتسرع بأقوال خالية من الحكمة ينقصها التفكير الطويل ، وتحكيم العقل والمنطق .

شعره :

تتلخص عبقرية أرنولد الشعرية في نجاحه في عرض أفكاره على جمهرة القراء . وفي أشعاره وخاصة قصيدته امبدوكليس Empedocles نرى الشاعر ينشدنا أغاني مطربة وقصائد تسيل رقة وعذوبة . فلنلق نظرة على هذه الأبيات القليلة من شعره ثم نبني حكمنا عليها بعد تدقيق وإمعان .

« أبولو — أيها الإله العظيم . إن هذه المساكن لا تصلح لمساكنك قط . ولكن في ذلك المكان حيث يلتقي البحر فيه والجبل ، هناك حيث يرسل القمر أشعته الفضية فتتردد الأصوات في الفضاء متغزلة بجماله ، هناك في وادي الآلهة تزهر thiohe يطيب لك العيش وتحلو لك السكنى » .

لو قرأنا هذه الأبيات في صورتها الإنكليزية لوجدنا الشاعر يغني معها شارحاً عواطفه ومشاعره . هنالك تسمو نفسه فيرتفع عن مصاف الشعراء العاديين . ولكن موسيقاه هي أنموذج من الأغاني الخفيفة التي يهابها ويخافها لتأثيرها على وحدة النفس وكيانها .

لقد تدرع أرنولد بدرع من الذكاء والابتكار . وطيلة حياته نراه قنوعاً بالحياة التي يحياها وراضياً بالعالم الذي يعيش فيه ، ولكنا نرى من خلال قصائده تطلعه نحو حياة مشرقة ، حياة الصباح العاطر في أيام الربيع الجميلة عندما تتفتح الأزهار والرياحين ناشرة في العالم سعادة أزلية خالدة . وفي قصيدته الرقيقة « الفجرى المتعلم » Scholar Cyibsy نرى الشاعر مسوقاً بتيار العواطف مقوداً لآلهة الشعر يضمن نظريته هذه في بضعة أبيات ملؤها الجمال والروعة متخذاً من هذا الحلم البهيج وحيه وسر عبقريته ، فهو يقول :

« فوق مياه المحيطات المتوسطة ، حيث تكثر الرياح بين شاطىء إيطاليا وشاطىء صقلية الجميلة حيث تلتقي مياه الاطلانتيك بمياه البحر المتوسط من خلال المضائق الغربية — هنالك تكثر السفن المشرعة حيث ترتفع الصخور إلى عنان السماء — وتهب الأمواج عنيفة فتخرج الزبد . هنالك يظهر الإسبانيون ذو الألوان مبالين بالمخاطرة والإتجار . فيعقدون أسواقهم التجارية على شواطىء البحار ... »

وأروع قصائده خيالا وأوسعها حرية هي قصيدته « البحري المهجور » Fsroakin Merman حيث يتطلع إلى العالم القديم بعين التواق الراغب مؤنباً سكان هذا العالم لهجرهم إياه وابتعادهم عنه — فكرة هي نفس حلم الجيل معبرة بطريقة مخالفة عن رغبته في الشباب ، في الحياة الجديدة السرمدية حيث يقول :

« تلك الكهوف الرملية العميقة الرطبة ، حيث تهدأ الرياح وتسكن سكوناً أبدياً ، هنالك تتسارق الأنوار النظر إلى هذه الأعماق ، وهناك تكثر الأملاح فتذوب في الجداول » .

وإن مقدرة أرنولد الرومانتيكية أو الإبتداعية بالأحرى لتتجلى في جماله وطهارته . وعوامل نجاحه وانتصاره تتلخص في سرده للخرافات والأحلام . وموسيقاه تختلف عما عرف في عصره بكونها فجائية شديدة الوقع لم تنل إعجاب المعاصرين . فشهرته كشاعر عبقري لم تبن بعد . ولما كانت البيئة التي وجد فيها تهتم كل الإهتمام للاخلاق ولا تأبه للجمال وأثره ؛ ولما كان والده رجلا دمث الأخلاق ليناً وعظيما في نفس الوقت ، لذلك نرى في شعر شاعرنا الميل الدائم إلى البساطة والرغبة الجليلة في الطهارة والصفاء . وكنتيجة لهذه البيئة ولهذه الرغبة في الشاعر ظهرت هنالك قصيدتان عدتا من روائع الأدب الإنكليزي بحثا في الأخلاق والدين بحثاً مسهباً مستفيضاً .

أحب أرنولد الطبيعة حباً جماً ، فوصفها في قصائده وأغانيه وصفاً قرأه كثير من البؤساء والمتألمين فسروا به عن نفوسهم ،

(١) Mathew Arnold. Poald P. 37

وأزالوا ما لحقهم من بؤس وشقاء . وكان ينظم قصائده على النمط الذى جرى عليه أستاذه وردزورث من قبله فقلده تقليدا أعمى فى أسلوبه وأفكاره . وكان بفطرته لا يميل إلى الإعتقاد بالخرافات والأباطيل القديمة مع أنه دونها كثيراً فى شـــعره ومؤلفاته ، فالصدق كان رائده فى كثير مما نظمه وفى قصيدته « حداثة الطبيعة » the youth of mature يرى شخصيته متمثلة أتم التمثيل وأكمله . ولم يكن أسلوبه ليقل عن أسلوب شلى أو أى شاعر عظيم آخر ناهيك بأن مادته وأفكاره كانتا لا تضاهيان .

وقصيدته « تريشدام وايسوت » تحوى عدداً من الأغانى الرائعة فهى تبدأ بهذه الأبيات الجميلة :

« أشعل الضوء يا غلام حتى أراها فلقد أتت الملكة المتعجرفة أخيراً . انتظرت طويلا وغالبت الحمى التى انتابتنى تأخرت أيتها العزيزة ، وكان تأخرك سكراً وهجرانا » .

ويجمع محبو أرنولد وتلامذته على أن قصيدة «رستم وسهراب» Rurtum and Sohrab هى أحسن ما كتبه الشاعر وقد لقبه على أثرها لورد رسل بقوله : « هو شاعر العصر الأوحد » . وهذه القصيدة مستمدة من قصة اسيوية قديمة تتلخص فى سير مبارزة حدثت بين بطل من أبطال الترك ووالده . وكان كل منهما يجهل صاحبه حتى قتل الولد فعرفه الوالد وحزن عليه حزناً شديداً . وما أجمل وصفه للأموات حين يقول

« إن الصدق يلازم شفاه الأموات ، والخداع كان يعيش فى طيلة حياتى » .

وعند ما يعلم الوالد أنه قد قتل فلذة كبده يشتد حزنه ويعزم على الإنتحار غرقاً فى النهر فيرجوه ولده المفارق للحياة أن يصبر وأن يجاهد فى هذه الحياة حتى يحصل ما لم يستطع هو الحصول عليه .

ومن بدائع شعره قصيدته « الميت الشجاع » التى لا يستطيع فهمها إلا القليل من مثقفى القوم ومتأدبيهم . ولكن من يفهمها يشعر باللذة التى تعاوده عند مطالعتها ويحس بنفس الوقت بخلوها من الخيال والإغراء اللذين يشعر بهما عند قراءته لقصيدة «رستم وسهراب» . فهى تخرج من القلب خروج قصائد برنز الجميلة ، وإن الفقرة الأخيرة مع كونها لا تخلو من بعض الأغلاط إلا أنها لا شك تحوى من العاطفة قدراً كبيرا

« عندما نلتقى فتتطلع بنظراتك ، متفرساً فى وجهى وما أحدثته الأيام من التغيير فيه . ولكن بالله دعنى أسألك : من هو ذلك الغريب الذى يتطلع إلى بعين المتأمل ، ذو العينين الرماديتين والشعر الأسود » .

فلسفته

لقد انتقد أرنولد المجتمع الإنكليزى فى عدد غير قليل من مؤلفاته وكتبه . وكان يميل إلى تقسيمه إلى ثلاث طبقات متفاوتة : أولاها طبقة الأشراف ، وثانيتهما الطبقة المتوسطة ، وثالثتهما الطبقة العامة . ولكنه لم يسمها كما سماها غيره من قبل ؛ بل أطلق على الأولى اسم البرابرة Barbaians وعلى الثانية لقب الفلستينيين[1] Phil istnls وعلى الثالثة لقب الهوام Psyrulace وكان يحترم طبقة الأشراف ويكثر من الثناء على أفرادها قائلا : « إن أعظم الفضائل وجود طبقة راقية من النبلاء يتخلقون بأحسن الأخلاق ويتحلون بأجمل الفضائل ، لهم أفكارهم الشريفة ، وأعمالهم النبيلة التى حببتهم بها الطبيعة . ويزداد جمال هذه الفضائل عندما تصدر عن أناس أقوياء يتحكمون بمصير الأمة ومستقبلها وينزهون أنفسهم عن التشاحن والتطاحن فى المسائل التافهة . وقد يحدث أن أحد أفراد هذه الطبقة تموره العبقرية وينقصه الذكاء ولكنه مع ذلك لا تصدر عنه أمور لا تعد فى حكم الشريفة منها[1] » .

ولكن أرنولد يتطلع نحوهم فيرى نقصا لا يمكن سده ، وعوزا ليس من المستطاع إهماله والاغضاء عنه . فهم بحاجة إلى الأفكار السامية وهذا ما سبب تأخرهم فى العصور الحديثة . وفى البلاد الأخرى نجد طبقة الفقراء على درجة أعظم من الدنية والحقارة من هذه الطبقة ؛ فالفقير يشعر بضعته ، ويحس بفقره وضعفه فيحسن من شأنه ليظهر بمظهر الند للند والقرن للقرن .

(يتبع)

خيرى حماد

(١) Mixed Essays Arnold